عُمَيْرُ بْنُ سَعِيْدٍ نَسِيْجُ وَحْدِهِ!

الدكتور محمد عمر الحاجي

رسوم إياد عيساوي

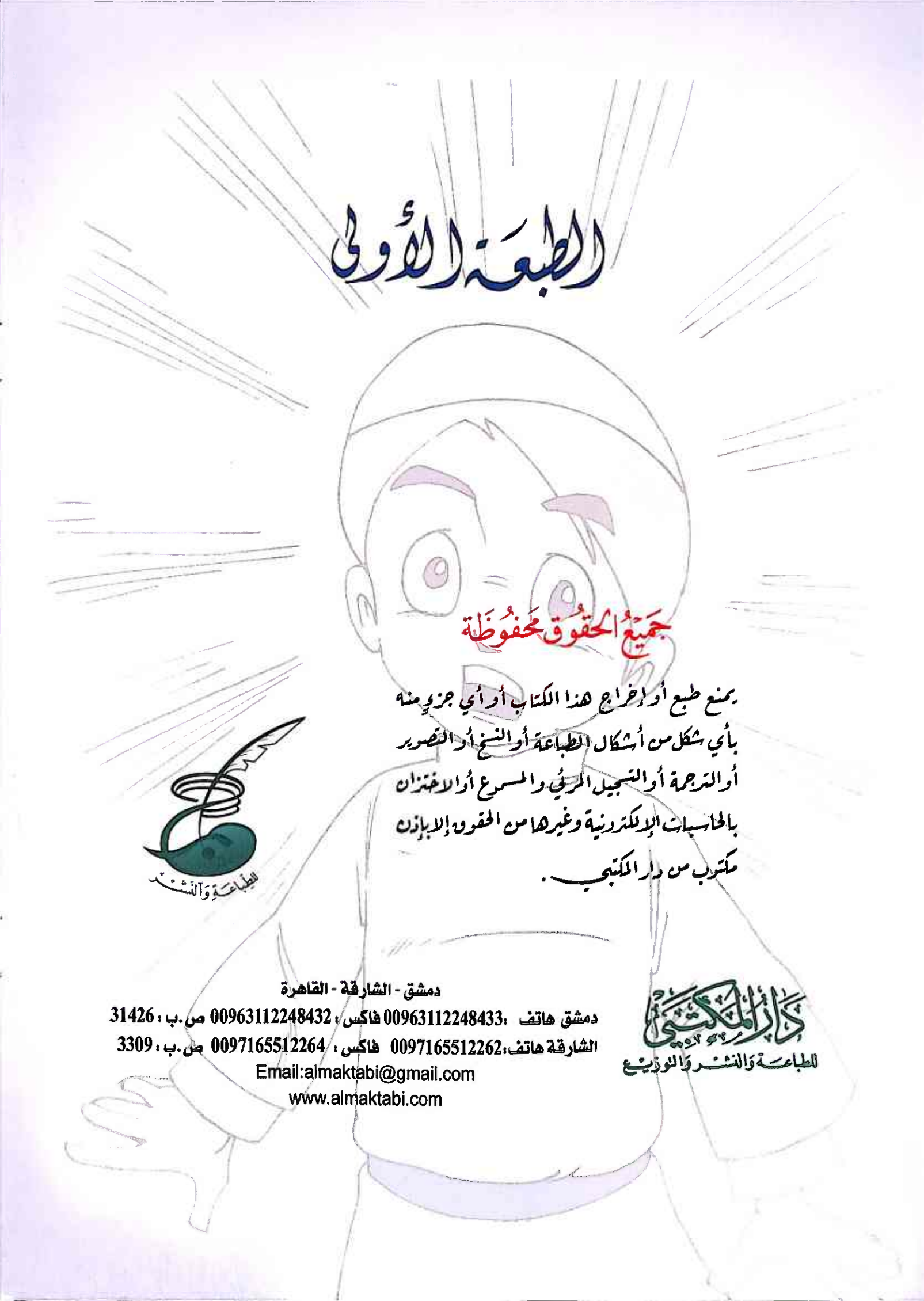

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل الرقمي والمسرع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email:almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

* عُمَيرُ بْنُ سَعْدٍ نَسِيجُ وحْدِهِ!! *

في كُتُبِ التَّراجُمِ ، كالإِصَابَةِ ، وأُسْدِ الغَابَةِ ، وسِيَرِ أَعْلامِ النُّبلاءِ ، مَواقِفُ عَجِيْبَةٌ غَرِيْبَةٌ ، وفِيْها مِنَ الأَدِلَّةِ الوَاضِحَةِ الشَّيءُ الكَثيرُ ، مِثَالُهَا كانَ عُميرُ يَتِيْمَاً ، مَاتَ أَبُوهُ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ مَالاً. وهُوَ صغيرٌ لَمْ يَتَجَاوَزِ العَاشِرَةَ.

لكنَّ أُمَّهُ ما لَبِثَتْ أَنْ تزوّجَتْ مِنْ ثَرِيٍّ مِنْ أَثْرِياءِ الأَنْصَارِ يُدْعَىٰ الجُلاَّسُ بْنُ سُوَيْدٍ ، فكَفِلَ ابنها عُميراً ، وَضَمَّهُ إِلَيْهِ.

وقَدْ لَقِيَ عُمَيرُ مِنْ بِرِّ الجُلاَّسِ ، وحُسْنِ رِعَايَتِهِ ، مَا جَعَلَهُ يَنْسَى أَنَّهُ يَتِيْمٌ ، وأَحَبَّ عُميرَ الجُلاَّسَ حُبَّ الابنِ لأَبيْهِ ، كَما أُولِعَ الجُلاَّسُ بِعُمَير وَلَعَ الوالِدَ بولَدِهِ ، وَكَانَ كُلَّما نَمَا عُمَيرُ وَشَبَّ يَزْدَادُ الجُلاّسُ لَهُ حُبّاً ، وبِهِ إِعْجَاباً ، وَذَلِكَ لِمَا كَانَ يَرَىٰ فِيْهِ مِنْ أَمَاراتِ

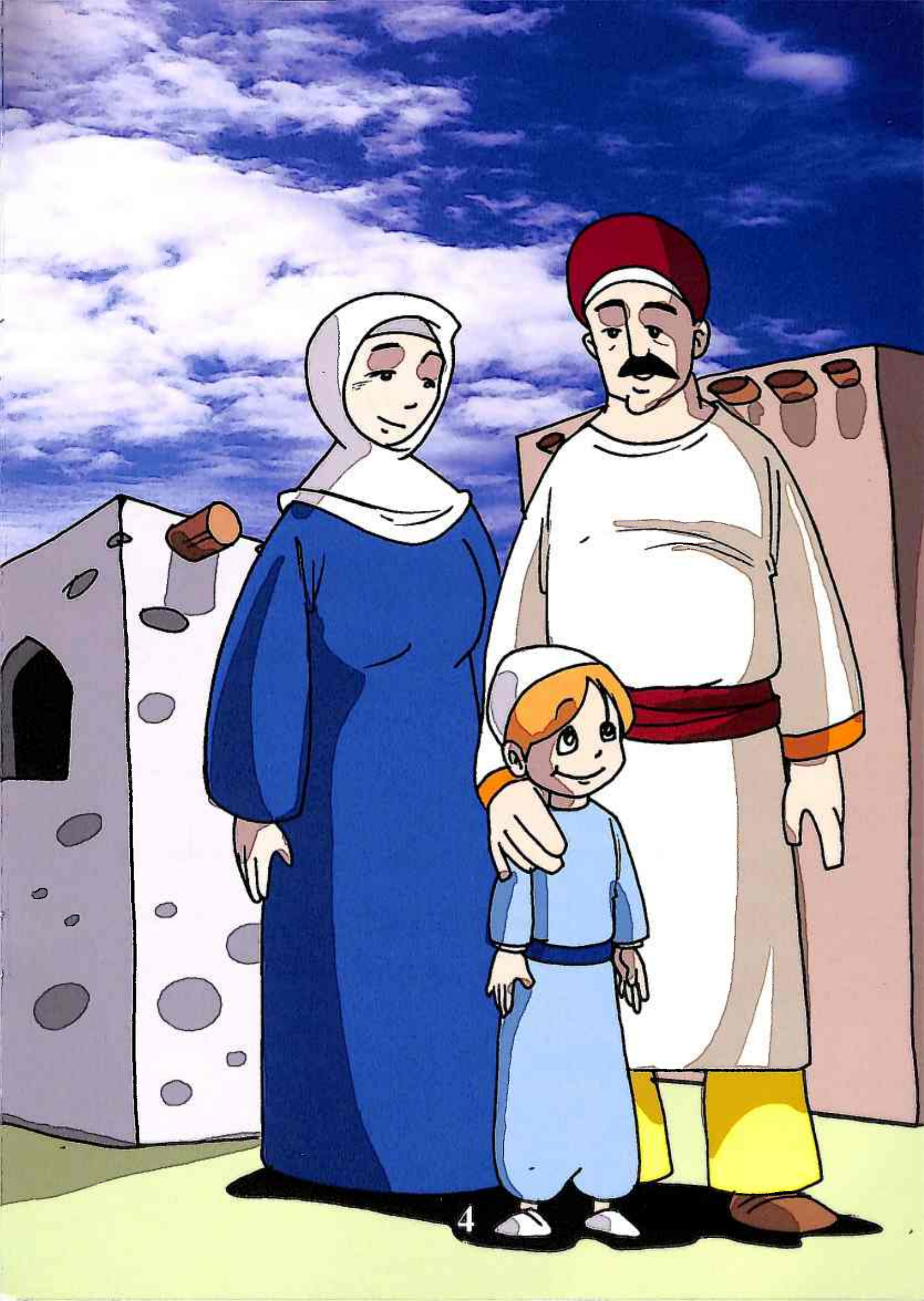

الفِطْنَةِ والنَّجَابَةِ ، وشَمَائِلِ الأَمَانَةِ والصِّدْقِ التي يَظْهَر في كُلِّ تَصَرُّفٍ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ.

وقَدْ أَسْلَمَ الفَتى عُمَيرُ وهُوَ لم يَتَجاوَزِ العَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِهِ إلاّ قَليْلاً ، فَوَجَدَ الإِيمَانُ في قَلْبِهِ الغَضِّ مَكَاناً خَالِياً ، فتمكنَّ فِيْهِ.

وكانَ عَلَى حَداثَةِ سنِّه لا يَتَأخَّرُ عَنْ صَلاةٍ خَلْفَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ.

وَسَارَتْ حَيَاةُ الغُلاَمِ عُميرِ بنِ سَعْدٍ عَلَى هَذَا النَّحْوِ هَانِئَةً وَادِعَةً ، لا يُعَكِّرُ صَفْوَهَا مُعَكِّرٌ ، حَتَّى شَاءَ اللهُ أَنْ يُعرّض الغُلاَمَ اليَافِعَ لتَجْرِبةٍ مِنْ أَشَدّ التَجارِبِ عُنْفَاً ، وقَسْوَةً.

وقَدْ زَادَهُ سُرُوراً ما رَأى مِنْ نِسَاءِ المُهاجِرينَ والأَنْصَارِ ، وهُنَّ يَنْزِعْنَ حُلِيَّهُنَ ، ويُلْقِيْنَهُ بَيْنَ يَدي رَسُولِ الله صَلَّىٰ اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، ليُجَهِّزَ بهِ الجَيْشَ الغَازِي في سَبيلِ الله!

وأبْصَرَ بَعَيْنَيْ رَأْسِهِ عُثْمانَ رَضِي الله عَنْهُ يَأْتِي

بِجِرَابٍ فيه أَلْفُ دِيْنارٍ ذَهَباً ، وَيُقَدِّمُهُ للنَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عليهِ وسَلَّمَ!!

بَلْ إِنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَعْرِضُ فِرَاشَهُ للبَيْعِ لِيَشْتَري بِثَمَنِهِ سَيْفَاً يُقاتلُ بِهِ فِي سَبيلِ اللهِ تَعَالَى!!

فَأَخَذَ عُمَيرُ يَسْتَعِيْدُ هَذِهِ الصُّورَةَ الفَذَّةَ الرَّائِعَةَ ، وَيَعْجَبُ مِنْ تَبَاطُؤِ الجُلاّسِ عَنِ الاسْتِعدادِ للرَّحيلِ مَعَ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، والتَّأَخُرِ عَنِ البَذْلِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قُدْرَتِهِ ويُسْرِهِ.

وَكَأَنَّما أَرَادَ عُميرُ أَنْ يَسْتَثِيْرَ هِمَّةَ الجُلاَّسِ ، وَيَبْعَثَ الحَمِيّةَ في نَفْسِهِ ، فَأَخَذَ يقُصُّ عَلَيهِ أَخْبَارَ مَا رَأَى ، وخُصُوصَاً أُوْلئِكَ النَّفَرِ الّذينَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسَلَّمَ ، وسَأَلُوهُ في لَوْعَةٍ وحَسْرَةٍ أَنْ يَضُمَّهُمْ إِلَى الجَيْشِ ، فَرَدَّهُمُ النَّبيُّ الكَريمُ ، لأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِنْدهُ مِنَ الرِكّائِبِ ما يَحْمِلُهُمْ عَلَيهِ: ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢].

لَكِنَّ الجُلاّسَ مَا كَادَ يَسْمَعُ مِنْ عُمَيرٍ مَا سَمِعَ ، حَتَّى انطلَقَتْ مِنْ فَمِهِ كلمةٌ أطارَتْ صَوابَ الفَتىٰ المُؤْمِنَ!!

لَقَدْ سَمِعَهُ يَقُولُ: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقَاً فِيمَا يَقُولُ ، فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الحمَيرِ!! فتعجَّبَ عُمَيْرٌ مِمّا سَمِعَ ، وقَالَ فِي نَفْسِهِ: رَجُلٌ كالجُلاّسِ بهذا السِّنِّ يقولُ كَلاَمَاً يُخْرِجُهُ مِنَ الإِيمْانَ إِلَى الكُفْرِ!!؟

ثُمَّ قَالَ عُمَيْرٌ فِي نَفْسِهِ: إِنْ سَكَتُّ عَنْ ذَلِكَ ، فإِنّي قَدْ خُنْتُ الله ورسُولَهُ ، لكنّ الجُلاَّسَ له فَضْلٌ عليّ ، فَقَدْ أَحْسَنَ إِلَيّ ، وَرَبَّانِيْ ، وآوانِيْ مِنْ يُتْمٍ ، وأَغْنَانِي ، مِنْ فَقْرٍ ، فماذَا أَفْعَلُ؟

إِنّهُ أَمَامَ أَمْرينِ أَحْلاهُمَا مُرٌّ ، فماذا سَيَخْتَار عُميرُ؟

التفَتَ عُميرُ إِلَىٰ الجُلاَّسِ ، وقَالَ لَهُ: واللهِ يا جُلاّسُ ، ما كَانَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ بَعْدَ مُحَمّدٍ صَلَّىٰ الله عليه وسَلَّمَ أَحَبّ إِلَيَّ مِنْكَ.

فَأَنْتَ آثَرُ النَّاسِ عِنْدِي ، وأَجَلُّهم يَدَاً عَلَيَّ ، ولَقَدْ

قُلْتَ مَقَالةً إِنْ ذكرتُها فَضَحْتُكَ ، وإنْ أَخْفَيْتُها خُنْتُ أَمَانتي ، وأَهْلَكتُ نَفْسِي ودِيني.

وقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَمْضِي إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ ، وأُخْبِرَهُ بِمَا قُلْتَ ، فَكُنْ عَلَى بَيِّنةٍ مِنْ أَمْرِكَ!!

ومَضَى عُميرُ إِلَى المسَجِدِ ، وأَخْبَرَ الرَّسُولَ صَلَّىٰ الله عليهِ وسَلَّمَ بما سَمِعَ من الجُلاَسِ ، فاستبقاه الرَّسولُ عِنْدَه ، وأَرْسَلَ أَحَدَ أَصْحَابِهِ لَيَدْعُوَ لَهُ الجُلاّسَ.

وَمَا هُوَ إِلاَّ قَلِيْلٌ حَتَّىٰ جَاءَ الجُلاّسُ ، فحيَّا رَسُولَ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّمَ ، وجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فقالَ الرَّسُولُ صلواتُ الله عليهِ: «ما مَقالةٌ سَمِعَها مِنْكَ عميرُ بنُ سَعْدٍ؟!» وذَكَرَ ما قَالَهُ: فَقَالَ الجُلاّسُ: كَذَبَ عَليَّ يا رَسُولَ الله وافْتَرىٰ ، فما تَفَوّهْتُ بِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ!! وأَخَذ الصَّحَابَة يُنقِّلوَنَ أَبْصَارَهُمْ بَيْنَ الجُلاّسِ والفَتىٰ عُميرٍ ، ورَاحُوا يَتَهامَسُون. فقالَ

أَحَدُهُمْ: إِنّه فتًى عَاقٌّ ، أَبَى إلاَّ أَنْ يُسِيء لِمَنْ أَحْسَنِ إِلَيْهِ.

وَقَالَ آخرونَ: بِلْ إِنّهُ غُلامٌ نَشَأَ في طَاعَةِ الله ، وإِنَّ قَسَماتِ وَجْهِهِ لَتَنْطِقُ بصِدْقِهِ والتفَتَ الرّسُولُ صَلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ إِلَى عُميرٍ فوجَدهُ قد إِحْتَقَنَ وَجْهُهُ بالدَّمِ والدُّمُوعُ تَنْحَدِرُ من عَيْنَيْهِ وتتَسَاقَطُ عَلَى خَدّيهِ وصَدْرِهِ ، وهو يردّدُ: اللهمَّ أَنْزِلْ عَلَى نبيِّكَ بَيَانَ ما تَكلَّمْتُ بِهِ...

فانْبَرىٰ الجُلاَّسُ يؤكِّدُ للنَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّمَ أَنَّ الفَتىٰ كَاذِبٌ. وأَنّه يَحْلِفُ باللهِ ما قَالَ شَيْئاً مما نَقَلَهُ الفَتَىٰ.

فَما إِنْ انتهى مِنْ كَلاَمِهِ حتى غَشِيَتْ رَسُولَ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ السَّكِيْنَةُ ، فَعَرفَ الصَّحَابَةُ أَنَّه يُوْحَىٰ إليهِ ، فلزِمُوا أماكِنَهم وسَكنَتْ جَوارِحُهُمْ ، وَلاذُوا بالصَّمْتِ ، وَتَعَلَّقَتْ أَبْصَارُهم بالرَّسُولِ صَلَواتُ الله عَلَيْهِ.

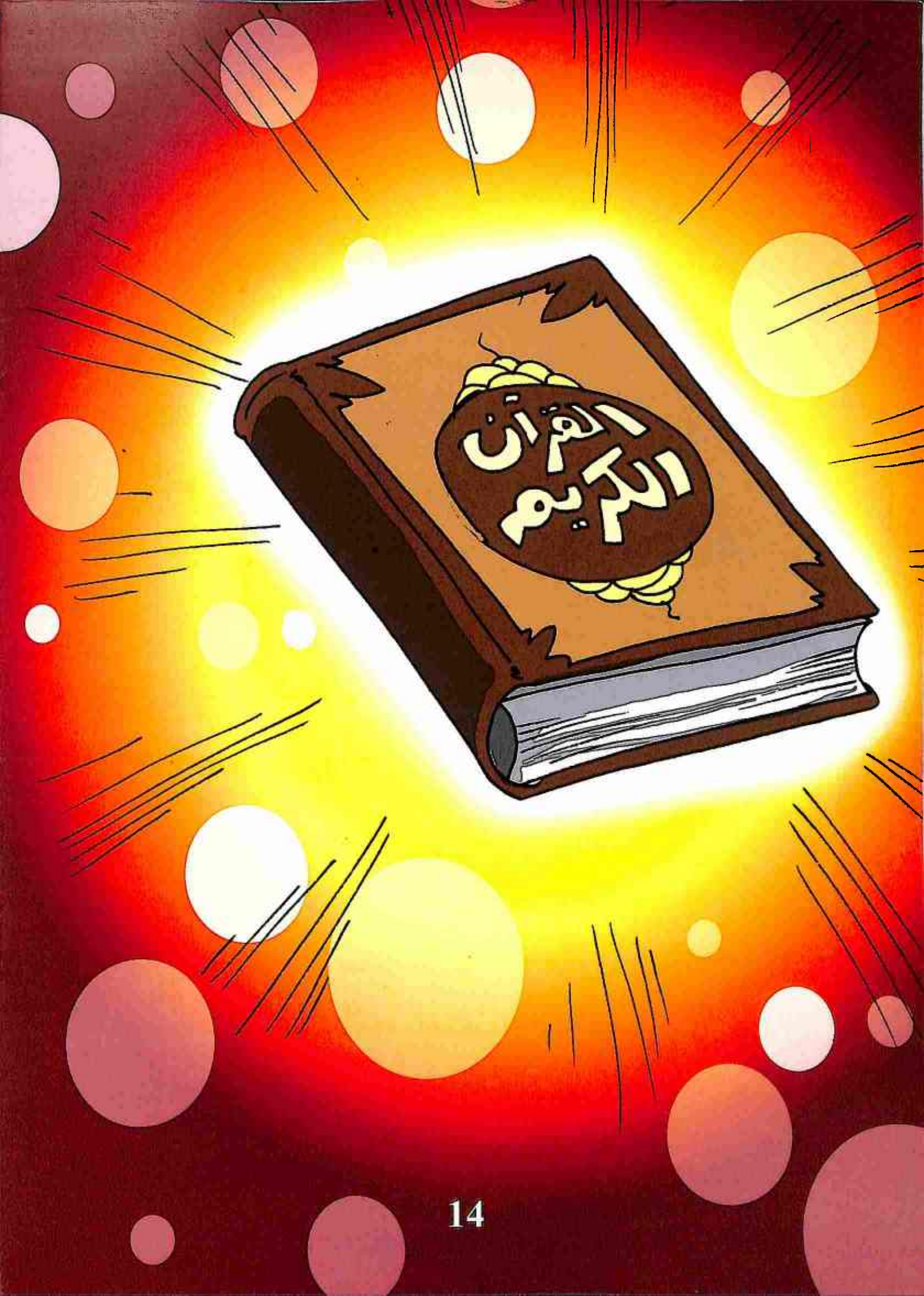
القرآن
الكريم

وعِنْدَئِذٍ ظَهَرَ الخَوفُ والوَجَلُ عَلَى وَجْهِ الجُلاّسِ ، وبَدَأَ التَلهُّفُ والتَشَوُّقُ عَلَى عُميرٍ ، وظلَّ الجَمِيعُ كَذِلِكَ حَتَّىٰ رَاحَ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يَتْلُو قَوْلَ اللهِ تَعالىٰ: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤].

وَلمّا قَرَأَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم هَذِهِ الآيةَ ، اِرْتعدَ الجُلاّسُ وَكَادَ لِسَانُهُ يَنْعَقِدُ مِنَ الخَوْفِ ، ومِنْ هَوْلِ مَا سَمِعَ!!

ثُمَّ التفتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ ، وقَالَ: بَلْ أَتُوبُ إِلَى اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، وإِنِّي أُشْهِدُ اللهَ أَنَّ عُميراً كَانَ صَادِقاً ، وأَنَا كُنْتُ مِنْ الكَاذِبينَ ، وأسْأَلِ اللهَ يا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَقْبَل توبتي ، جُعِلْتُ فِدَاكَ.

وَالتَفَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ إِلى الفَتَىٰ

عُمَير بنِ سَعْدٍ ، فإذَا دُموعُ الفَرَح تُبلِّلُ وَجْهَهُ المُشرِقَ بنُورِ الإيمانِ.

فَمَدَّ صَلواتُ الله عليه يَدَهُ الكَريْمَةَ إلى أُذنِهِ ، وأَمْسَكها بِرِفْقٍ ، وقَالَ لَهُ: «وَفَّتْ أُذنُكَ - ياغُلاَمُ - ما سَمِعَتْ وصَدَّقَكَ ربُّكَ».

أَجَلْ!! ولمّا كَبِرَ عُمَيرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عيّنَهُ الفَاروقُ عُمَرُ رَضِي اللهُ عَنْهُ وَاحِداً مِنْ عُمّالِهِ. فَأثْبَتَ كَفاءَةً كَبيرَةً ، وَلِذلِكَ قَالَ عُمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ: عُميرُ بنُ سَعْدٍ نسيجُ وَحْدِه ، ولَكَمْ وَدِدْتُ أَنّ لِيْ رِجَالاً مِثلَ عُمَيرٍ ، لأسْتَعِيْنَ بِهِمْ في أَعْمالِ المسْلمينَ. فرَضِي اللهُ عَنْهُ وأَرْضاهُ. والحمدُ لله ربِّ العَالمينَ.

* * *